البشير والحركة النسائية الأردنية

آمنة الزعبي [1]

إنَّه لمن دواعي سروري واعتزازي أن اتحدث من هذا المنبر الوطني الموقَّر حول تجربةٍ رائدة من تجارب رائدات العمل التطوعي والتنموي والنسوي، الأستاذة هيفاء البشير أمدَّها الله بالصحة والعافية.

وعند الحديث عن تجربة النساء الرائدات الملهمات، فقد قمنا نحن باتحاد المرأة الأردنية بالتعامل مع هذه التجارب وتوثيقها من خلال مركز إميلي بشارات للدراسات والتوثيق، فتاريخ الحركة النسوية وتاريخ النساء بشكلٍ عام ما زال تاريخًا شفويًّا وغير موثَّق رسميًا بما يليق وينصف هذه المسيرة النيِّرة للنساء.

ومن خلال هذا التوثيق نستخلص أنَّ النساء الأردنيات الرائدات عبر مسيرة نضالهنَّ من أجل العدالة والتقدم والمساواة وبناء الوطن لم يَكُنَّ فقط مشاركاتٍ بل كُنَّ صانعاتٍ للتغيير في مجتمعاتهن وعلى كافة الصعد، وشاركن بشكلٍ فاعلٍ في بناء الدولة الأردنية الحديثة مؤثِّراتٍ ومتأثراتٍ بكلِّ ما مرَّ بالوطن والمنطقة من أحداث؛ هكذا تقول كلُّ النتائج والإنجازات، وهذا ما ينطبق على دور ومسيرة الرائدة الأستاذة هيفاء البشير وثلَّةٍ كبيرة من رفيقاتها وزميلاتها الرائدات في الحركة النسوية الأردنية، اللواتي أسَّسنَ وعملْنَ معًا وناضلْنَ نضالًا طويل الأمد من أجل نَيْل المرأة لحقوقها، وبناء مجتمع العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص، وبناء نهضة هذا الوطن، نذكر منهنَّ المرحومة إميلي بشارات، والمرحومة لمعة بسيسو، والعديد من الرائدات، ربما في الجيل الأول أو الثاني، ما زلن على قيد العمل

(1) عضو المكتب التنسيقي للشبكة العربية للتنمية/ ناشطة في شؤون المرأة.

والعطاء: هيفاء البشير، إميلي نفاع، صبحية المعاني، أسمى خضر، وعبلة أبو علبة، وليلى نفاع،.. وغيرهن الكثير من اللواتي نتمنَّى لهنَّ العمر المديد ودوام العطاء.

أودُّ هنا أن أتحدث عن تجربة السيدة هيفاء البشير، من خلال ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: السيرة الذاتية ومحطات في تجربتها التطوعية، وأقتبس في مركز إميلي بشارات عام 2009 أولًا حديثها عن الحركة النسوية الأردنية واتحاد المرأة من خلال ما قالته في هذا المركز:

عام 1944 كان اتحادٌ نسائي وجمعية التضامن، وكان لجلالة الملكة المرحومة زين دورٌ بأن تشترك في لقاء في القاهرة لبحث القضية الفلسطينية.

ثم كانت هناك في عام 1948 حركة جيدة في الأردن لمساندة المرأة الفلسطينية المُهجَّرة، وفي عام 1950 كان هناك دورٌ جيد للمرأة في الاتحاد النسائي.. عام 1957 جُمِّد مثله مثلَ كلِّ التنظيمات الأخرى، وعام 1974 أُعيدت له الحياة، لكنَّه لم يُفعّل بسبب الاختلاف، ولم يفعّل إلا عام 1989، لكنْ، حاليًا وأنا أراقب الحقيقة أحيّي اتحاد المرأة الأردنية بالقيادات التي توارثته، وترأَّسُهُ السيدة آمنة الزعبي ونشاطاتها في كلِّ الأصعدة: في دعم النضال العربي، ودعم المرأة داخل الأردن، ونجد له وجودًا. أنا شخصيًا لم أُدعَ يومًا لأيِّ نشاطٍ بصفتي الشخصية، ولكن تمَّت دعوتي بصفتي رئيسة جمعيات، وهي جمعيات خيرية إنسانية، لكنْ، بصفتي الشخصية لم أتخلَّ يومًا عن أيِّ دعوةٍ لهذا الاتحاد، لأني أحترم دَوْرهُ وعمله.

السيدة إميلي بشارات تقف لوحدها وتقول ما يجب أن يقال، هذه جرأة؛ فنحن الآن في عام 2000 يمكن أحيانًا أن نعجز عن أن نقف مثل إميلي المبادرة، فهي أول امرأة تعمل في الحقوق وكانت هذه الأمور منوطة بالرجال، وكانت أول امرأة تطالب بالانتخاب، وأن تذهب لأمريكا وتتكلم في مواضيع القضية الفلسطينية، ولها دورٌ قياديٌّ يتصف بالجرأة

والأصالة والاستناد إلى أسرتها العريقة وإيمانها بدورها الذي نُكبره جدًّا؛ فهي لم تخشَ أمرًا، ولقد اعتمدت على قدرتها وقيادتها وتاريخها وعلى علمها بأن تقود حركه نسائية.

وهناك العديد من الرائدات، وكلُّهنَّ صديقاتي، لكنْ، لا أستطيع أن أذكرهنَّ جميعًا، لكي لا أنسي أيّ واحدةٍ منهن.

وقد ساندتني السيدة لمعة بسيسو وهي في العراق لأدعم جمعية الأَسرَّة، وهي من السيدات الفاضلات، والسيدة سلوى زيادين وإيملي نفاع في المشاركة بمؤتمر برلين الشعبي وعام المرأة الدولي، ولهنَّ دورٌ في الاتحاد الديمقراطي وفي اتحاد المرأة الأردنية.

ثانيًا: دورها في الحركة النسائية. وكما هو واردٌ في التوثيق أعلاه كانت السيدة هيفاء قد قالت إنها على علاقة وثيقة مع رائدات الحركة النسائية، مثل المرحومة إميلي بشارات والمرحومة لمعة بسيسو، وتشاركت معهنَّ في كثيرٍ من محطات العمل وفي دعمهنَّ في تأسيس العديد من الجمعيات، مثل جمعية الأَسرَّة البيضاء وغيرها، وناضلنَ بشكلٍ شجاع ومؤثِّر من أجل نيل المرأة حقّها في المواطنة والمشاركة الفاعلة، ولقد عَبَرْن الطريق بحقٍّ أمام الأجيال اللاحقة من رائدات العمل، وفَتَحْن الباب أمام المرحلة اللاحقة في العمل والنضال الوطني والنسوي.

لقد كان لي شرف التعرف عليها والعمل معها في عقد التسعينيات من القرن الماضي من خلال العمل المشترك مع الفعاليات والهيئات النسائية والشخصيات النسائية، فقد كانت تلك المرحلة تمرُّ بالأحداث المهمة على المستوى الوطني، في فترة بداية المرحلة الديموقراطية وما تُمليه من استحقاقات، وكذلك على صعيد المنطقة والمحيط الملتهب من احتلال فلسطين وما يُرتكب بحقِّ الشعب الفلسطيني من جرائم، وقيام الانتفاضة الثانية للشعب الفلسطيني، وكذلك حصار العراق الشقيق والعدوان المتكرر على شعبِهِ، إلى احتلال جنوب لبنان.

فكلُّ هذه الظروف فرضت على النساء والحركة النسائية نضالًا مزدوجًا في مسار هذا العمل من أجل تحقيق حقِّ المشاركة الفاعلة للمرأة في المسيرة الديموقراطية وانتزاع المزيد من المكاسب، إذ كنَّا نجتمع معًا ونخرج بالعديد من المذكرات والمطالب.

كانت هناك حركة قوية ومؤثِّرة، وكانت السيدة هيفاء دائمًا في طليعة أيِّ وفدٍ تُشكِّله الهيئات النسائية، وقد زُرنا معًا كلَّ صُنَّاع القرار بدءًا بالديوان الملكي العامر ورئاسة الوزراء ومجلسي الأعيان والنواب وكافة مراكز صنع القرار، وكنّا نحمل مطالب عادلة للمرأة الأردنية وحقِّها في المشاركة بمواقع صُنع القرار والوصول إلى البرلمان بموجب قانون انتخابٍ عادلٍ، هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ ثانية لم تكن النساء الأردنيات بعيداتٍ عما يجري في المحيط، وخصوصًا ما يتعلق بالقضية الفلسطينية وما يقوم به الاحتلال من جرائم بحقِّ المرأة الفلسطينية والشعب الفلسطيني؛ فقد كُنَّا على تماسٍ يوميٍّ مع الأحداث وكانت تجتمع الهيئات والفعاليات في بيت المناضلة المرحومة عصام عبدالهادي، حيث كانت السيدة هيفاء أوَّل الحاضرات دائمًا، وكنا نلتقي للتخطيط لفعاليات تتصدى للأحداث الجِسام التي تمرُّ بها المنطقة ولجرائم الاحتلال، وهي إمّا لكتابة البيانات والمذكرات أو لتنفيذ وقفاتٍ واعتصاماتٍ أمام هيئة الأمم والصليب الأحمر والسفارات المعنية، فنسلمها المذكرات التي تعبِّر عن الاحتجاج ورفض ما يجري بحقِّ شعوبنا من جرائم وتعسُّفٍ، وقد كانت حاضرةً دائمًا مع المرحومة عصام عبدالهادي والفعاليات النسائية للدفاع عن فلسطين وشعبها، وما زالت.

أمَّا البُعد الثاني، فهو علاقة السيدة هيفاء مع اتحاد المرأة، فقد ذكرت في توثيق تجربتها أنها كانت دائمًا على علاقةً وثيقة مع الاتحاد منذ تأسيسه، وربَطتْها مع زميلاتها إميلي بشارات وعضوات الاتحاد آنذاك علاقة تعاون ودعمٍ ومساندةٍ لها في تأسيس جميعاتٍ عدة.

لكنْ، فيما بعد تم تجميد الاتحاد وإنشاء الاتحاد النسائي الأردني العام، وبقي اتحاد المرأة لحين عودة الحياة الديموقراطية، وقد كان لي شرف التعرُّف عليها والعمل معها.

وفي أواخر التسعينيات كان اتحاد المرأة يُنفِّذ العديد من البرامج الرائدة والحملات الوطنية، إمَّا لتعديل منظومة القوانين المجحفة ضد المرأة أو بناء تحالفات وطنية من أجل مكافحة الفقر أو تعزيز المجتمع المدني، أو عمل فعاليات للتضامن مع المرأة الفلسطينية ودعم حق العودة. وقد كانت السيدة هيفاء البشير في طليعة المُشاركات والمشاركين، وكانت تعطي وزنًا وثِقلًا، فيثرى التحالف أو النشاط بوجودها ونقاشاتها، وأذكر أننا كنا معًا في التحالف الوطني من أجل مكافحة الفقر، وذهبنا معًا لرئاسة الوزراء والبرلمان وسلمنا مذكراتٍ توضِّح وجهة نظر المجتمع المدني ومقترحاته لمواجهة الفقر.